

الهجرة النبوية في ضوء الأحكام التاريخية

عطاء الرحمن الندوي

وفي جانب آخر نحن نرى غضب الله تبارك وتعالى على هؤلاء الذين آثروا الدنيا ولم يهاجروا في هذه الآية الكريمة التالية .

"قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاداً في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي قوم الفاسقين" (سورة التوبة - ٢٤)

وهكذا قد أعلن الرسول صلى الله عليه وسلم نتيجة الهجرة في حديثه الشريف المشهور عند عامة الناس وخاصتهم الذي رواه الإمام البخاري في أول الكتاب تحت عنوان "كيف بدء الوحي؟ عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم:

"إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة يتكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه".

ومن هنا قد اتضح قولنا "بان الهجرة في الإسلام حركة إيجابية جهادية، وموقفاً استراتيجياً لمواجهة الأوضاع القاسية القائمة" مثل ضوء الشمس في رابعة النهار . ويظهر في هذه النقطة الإستراتيجية عدم استسلام المهاجرين للظروف القائمة ولا السقوط عندها .

ومفهوماتها في أذهانهم مشوهة " يريدون أن يطفؤوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون " سورة الصف - ٨

أن الهجرة هي طريق الرسل ومن تبعهم ، ولون من ألوان الصراع بين الكفر والباطل وبين المسلمين بقيادة الأنبياء والرسل والكافرين بممارساتهم ونشاطاتهم التي يقف على رأسها الشيطان، ولذلك نحن نسارع إلى قول المؤرخين الذين قالوا: بان الهجرة حركة إيجابية جهادية على أرض المعركة الدائرة بين الإسلام والكفر وبين الحق والباطل، وليست حركة سلبية هروبية يؤثره صاحبها السلامة أو يختار طريق الدنيا، فالمهاجر مازال في ساحة المعركة وليس خارجاً منها، وليس الإنسحاب من المعركة بأي حال من الأحوال، وأن الذي يولي معركة الإسلام دبره مؤثراً السلامة والعافية بيوء بغضب من الله سبحانه وتعالى وماواه جهنم وبئس المصير، كما بين القرآن الكريم في سورة الأنفال:

"يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله وماواه جهنم وبئس المصير" (الأنفال: ١٦)

فالحرب بين الحق والباطل وبين الإسلام والكفر ليست ساحتها واحدة، وهي لا تدور بين الأسلحة القديمة والحديثة فقط ولها ميادين شتى، وليست مشتملة على الأسلحة كما لا يخفى على من له الملم بالتاريخ الإسلامي، وبهذا أصبحت الهجرة جهاداً عند العلماء والمسلمين

لقد كانت هجرة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه من مكة إلى المدينة عزة وقوة على الأديان الأخرى، وفتحا ونصرا للإسلام والمسلمين و إنها لعبت دوراً كبيراً في مجرى الدعوة الإسلامية، ولأجل ذلك لما أراد واضعوا التاريخ في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه وضع تاريخ الإسلام ما وجدوا أي حدث أحق وأصدق أن يبدأوا به من الهجرة التي كانت سبب تحول عظيم وثورة كبيرة في تاريخ الإسلام .

ونحن هنا في هذا الموضوع عن " الهجرة النبوية في ضوء الأحداث التاريخية " نكتفي بالقاء الأضواء على بعض الأحداث التاريخية التي تكون معالم بارزة على طريق الجيل الناشئ المسلم حيث بدأ الصراع بين الخير والنشر منذ ولادته ويراه إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، كما قال القرآن الكريم " إن الأرض لله يورثها من يشاء " سورة الأعراف - ١٢٨

ولذلك نحن نريد أن نوضح ذلك الأمر الذي أن يكون له واضحا قبل كل شيء للقراء، وهي معنى الهجرة ومفاهيمها، لأن كثيراً من الناس لا يفهمون معنى الهجرة ومفاهيمها، ويقولون: الفرار عن الأحداث الدامية والأوضاع الحربية بسبب الخوف على الأنافس والأموال ويعبره المسلمون بالهجرة، وبهذا التعبير فإنهم يدمرون الصورة المشرقة لسلف هذه الأمة ويحولون تضحياتهم البطولية إلى التصرفات الانتهازية ويذهبون بهم من نور الهجرة إلى ظلماتها . ويريدون أن تكون دروس الهجرة

وهنا ندعوكم أيها القراء إلى استماع قول الله جل
وعلا عن المستضعفين :

"إن الذين تتوفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم
قالوا فيما كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض
قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها
فأولئك ماواهم جهنم وساءت مصيراً"
النساء- ٩٧

فالجهاد كالقمر لا ينطفئ أبداً ، فإذا أقل عن
أرض ظهر في أرض أخرى • وبهذه المناسبة لا
أريد أن أطيل عليكم الكلام عن الهجرات الحديثة •
بل أرجع إلى الهجرة النبوية في ضوء الأحداث
التاريخية • فكلما انصرم أو أقبل عام هجري
جديد يجب على المسلمين أن يستعيدوا ذكرى
هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم : ظل
رسول الله صلى الله عليه وسلم في مكة ١٣
عاما يدعو الناس إلى الله تبارك وتعال ، وأهلها
واقفون عقبة كبرى في سبيل هذه الدعوة الجديدة
الإسلامية التي بدأ صاحبها -عليه الصلاة
والسلام- • ويحاربونها ويصدون عنها ويؤذون
الرسول مع أصحابه الجدد بشتى الوسائل
ومختلف لأساليب ، فيتحير عقل البشر في إدراكها
فيتعقبونهم أينما حلوا وحيثما نزلوا ، حتى ضربوا
عليهم الحصار في شعب أبي طالب ليموتوا
جاعين أو يرجعوا عن دينهم ، واشتدت الأوضاع
حتى أكلوا ورق الأشجار مضطرين ، فالأذى يشتد
ويشتد ويشد ، والحصار يحكم فهاجر للحبشة
من هاجر ، وبقي في مكة مابقي مع الرسول صلى
الله عليه وسلم • وقد أذاهم أبو لهب وامراته ما لا
يتصوره الناس حتى خرج القرآن الكريم عن
صمته الطويل على هذه الظروف القاسية بقوله
الذي يتلى إلى يوم الدين : " تبت يدا أبي لهب وتب •
ما أغنى عنه ماله وما كسب ، سيصلى نارا ذات لهب
وامراته حمالة الحطب ، في جيدها حبل من مسد " •
وأشار القرآن الكريم إلى أعمال امرأة لهب الخبيثة
أنها كانت تحمل الأشواك فتلقيها على طريق
الرسول حيث يمر •

وأمية بن خلف همز الرسول ولمزه إذا رأى
الرسول ، فانزل الله فيه وعيده بصورة كاملة
كذلك ، حيث قال بلسانه البلغ : " ويل لكل همزة
لمزة ، الذي جمع مالا وعدده • يحسب أن ماله
أخلده ، كلا لينبذن في الحطمة ، وما أدراك ما
الحطمة ، نار الله الموقدة ، التي تطلع على الأفئدة
إنها عليهم مؤصدة في عمد ممددة " •

والنضر بن الحارث كان يدعو الناس إلى
الله إذا جلس مع الرسول ويحذر قريشا مما
أصاب الأمم المنصرمة ويرغبهم فيما عند الله
من الأجور والنعم في الجنة ، وإذا قام فيقول لهم :
هلموا إلى ما تفعلون ، فما محمد بأحسن مني حديثا
وما حديثه إلا أساطير الأولين ، وهناك نار غضب
الله تبارك وتعالى وأنزل فيه وفي أفعاله في
سورة الفرقان : وقالوا أساطير الأولين اكتتبها
فهي تملى عليه بكرة وأصيلا ، قل أنزله الذي يعلم
السر في السموات والأرض إنه كان غفورا رحيمًا
الآية ٥-٦) وفي موضع آخر أنزل فيه •

ويل لكل أفاك أثيم يسمع آيات الله تتلى
عليه ثم يصر مستكبرا كان لم يسمعها كان في
أذنيه وقرأ فبشره بعذاب عليم • (سورة الجاثية
٧-٨)

وفي جانب آخر اشتعل الوليد بن المغيرة
فبدأ يقول أينزل على محمد وأتركه وأنا كبير
قريش وسيدها ويترك أبو مسعود الثقفي سيد
ثقيف ونحن عظيمي القرية ، وهناك أنزل الله
سبحانه وتعالى هذه الحقيقة التي تتلى إلى يوم
القيامة : " وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من
القرينتين عظيم ، أهم يقسمون رحمت ربك نحن
قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا
بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا
سخريا ورحمت ربك خير مما يجمعون " •
سورة الزخرف ٣٠-٣١

وذكر التاريخ ما فعل أبي ابن خلف الذي أتى
عقبة بن معيط وهو صديقه وحميمه ، وكان عقبة

قد جلس إلى الرسول وسمع منه فقال له أبي بن
خلف : بلغني أنك جلست محمداً وسمعت منه ،
وجهي من وجهك حرام أن أكلمك إن أنت جلست
إليه أوسمعت منه ولم تاته فتتفل في وجهه ففعل
ذلك الملعون أنزل الله فيهما في سورة الفرقان •
"ويوم يعض الظالم على يديه يقول يا ليتني
اتخذت مع الرسول سبيلا ، يا وليتي ليتني لم اتخذ
فلانا خليلا ، لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني
وكان الشيطان للإنسان خذولا " •

الفرقان -٢٦-٢٩

وما انتهى الأمر إلى هذا الحد ، بل اعترض
الأسود بن المطلب والوليد ابن المغيرة وأمية بن
أبي ابن خلف والعاص بن وائل الرسول وهو
يطوف بالكعبة المشرفة • وكانوا كبار السن في
قومهم ، فقالوا للرسول صلى الله عليه وسلم ، يا
محمد تعال ، فلنعبد ما تعبد وتعبد ما نعبد ، فانزل
الله تبارك وتعالى :

"قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ولا
أنتم عابدون ما أعبد ، ولا أنا عابد ما عبدتم ، ولا أنتم
عابدون ما أعبد ، لكم دينكم ولي دين " •

وفي ذلك الحين ما كان الرسول صلى
الله عليه وسلم سالماً من الأذى ، بل أخذ الأعداء
شكلا قبيحا في استخدام وسائل الأذى ، وكانوا
يطرحون عليه رحم الشاة وهو ساجد أمام ربهم
وبدؤا يلقون القاذرات في القدرة التي يتوضأ منها
حتى بنى حائطا يستتر به منهم إذا صلى • بعد أن
إستحال الأمر في مكة بدأ التفكير بارض أخرى
لانطلاق دعوته الإسلامية ، فاختار الرسول
"الطائف" وهكذا انكشف أمام الأعداء بأن العقيدة
أكبر من الأرض والقوم والمال والأقارب ، و من
سائر الروابط التي يقوم بها الناس ، وجاءت
الهجرة عمليا لتؤكد قوة العقيدة وأخوة الإيمان •
خرج الرسول للطائف بعد ما مات عمه أبو طالب
حيث نال الأعداء منه من الأذى ما لم يكون يتمكنون
اليقية على ص - ٦